مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 12 / العـدد: 02 (2024)، ص: 376-390

إنصاف المجنون بين البيمارستان الإسلامي والإعتراف عند ميشال فوكو

Equating the Mad Between the the Islamic Bimaristan and the Recocnigtion of Michel Foucault

د. جزولي أمينة *

جامعة سعيدة / annamagistrat@gmail.com

تاريخ الاستلام:2024/02/16 تاريخ القبول: 2024/04/29 تاريخ النشر: 2024/06/01

الملخص:

الإنصاف الأخلاقي للآخر ليس فقط مرهون بالتساوي في التوزيع، بل هو يتطلب تساوي في العلاج والاحترام وهذا مايحتاجه المجنون الذي طالما عاش شاذًا، ومسكوت عنه قبل ميلاد العيادة، ومن مظاهر الإنسانية التي شهد لها تاريخ الطب العربي البيمارستانات وهي المشافي التي تعالج المرضى، والمجانين على حد سواء بالموسيقى والقصص والحدائق، بعدما كانو في سجون أوربا مقيدين وهي حقيقة كشف عنها فوكو في تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي .

الكلمات المفتاحية:(البيمارستان . الجنون . الإعتراف . الإنصاف المسكوت عنه . الحماقة).

Abstract :

The ethical fairness of the other isn't merly depending on equal distribution, it rather requires evenness of therapy and respect and that's what mad needs as long as he lived abnormal, and silenced about before the clinic's establishement. Moreover, some of humanity aspects which the history of Arabe medecine whitnessed are the Islamic Bimaristan, wich is the hospitals where each individual gets hospitilized, and mad among them through music, stories and gardens, after they were imprisoned in Europe and it's a truth uncoverd by Fuko in his book « Madness and Civilization : A History of Insanity in the Age of Reason ».

Keywords : (Bimaristan – Madness – Recognition – Silenced fainess – foolishness

* **جزولي أمينة ، جامعة سعيدة**

د. جزولي أمينة

مقدمة:

ميلاد المشافي داخل الحضارة العربية الإسلامية هو البيمارستان، وداخله علاج المرضى والمجانين الذين لهم الحق في العلاج النفسي بالموسيقى التي ازدهرت بالإضافة إلى القصص والحدائق من أجل الراحة النفسية للمختلين عقليًا، وإن كان ميلاد البيمارستان فيه إنصاف للمجنون فإن ميلاد العيادة والطب عند فوكو عرف تطورات مسكوت عنها داخل تاريخ الجنون من تعسفات وتهميش وسجن وطرد المرضى المختلين عقليًا، والقاسم المشترك بين تاريخ الجنون وبين العلاج داخل البيمارستان هو إنصاف المجنون أخلاقيًا لأنه في النهاية إنسان وليس طفرة، وما نحاول توضيحه من خلال إنصاف المجنون بين البيمارستان داخل الحضارة العربية الإسلامية، وبين كشف ميشال فوكو عن المسكوت عنه المطموس من مأساة عاشها كل مجنون في القرون الوسطى وعصر النهضة، فإلى أي مدى تتقاطع بنيوية فوكو في تاريخ الجنون مع الطب العربي داخل البيمارستان؟ وهل كان تاريخ الجنون تاريخ إعتراف وإنصاف؟ أم لا منطوق مسكوت عنه؟

فالقِيم الإنسانية هي إنصاف من ناحية الكرامة والإحترام، ولا تغيب بغياب العقل عن الإنسان لأنه وإن لم يكن المجنون غير ملتزم ومسؤول فإن الآخر الإجتماعي ملتزم بالعناية به ومسؤول عن ضمان راحته النفسية، وهذا مايؤنسن الإنسان ويدخله ضمن ثقافة العيش المشترك وأخلاقياته.

أولاً. العقل أعدل قسمة وتوزيع بين الناس :

إقتضت الحكمة والصرامة الديكارتية بأن يكون العقل أعدل قسمة وتوزيع بين الناس بما يؤهل للإنسان الناطق تطابق اللغة والفكر الذي تعدد مرادفاته في تاريخ الأفكار بين مفاهيم اللوغوس، المنطق، التطابق بين الذات ومع الواقع، اللغة لأنه لاوجود للغة دون فكر ومن الحكمة أيضًا أن لا نقصي المجنون بما فقد من عقله كونه لا يتطابق مع المنظومة الأخلاقية والتعاقدية، والقانونية، والإجتماعية، لكن هو يتطابق المجنون مع المنظومة الإنسانية كونه إنسان تجاوز الصرامة وقواعد العقل، نعتته الشعوب عبرى الحضارات بالمعتوه، الأحمق المجنون، الدرويش، البليد، فكان المجنون محل إقصاء وعزل، وبما أن الجنون يمثل أقليات فمصيره لا يتجاوز مصير الأقليات من

التهميش والمسكوت عنه الذي يجهله قواعد سلوكه ولا من يضبط له سلوكه بالعزل الذي انتشر في القرون الوسطى الأوربية.

فالأخلاقيات هي بحث عن الإنصاف الذي إشترك فيه ميشال فوكو في حديثه عن تاريخ الجنون، مع القِيم الإنسانية عند العرب المسلمين الذين أنصفوا المجنون داخل البيمارستان الذي تطور إلى مشفى في العصور اللاحقة " فبعد إنتهاء العصر الوسيط مباشرة تولته رعاية نزعة إنسانية طبية ثقافية آتية من المشرق العربي يقول عنها فوكو: يبدو أن العالم العربي أنشأ مبكرًا بيمارستان أو مستشفيات حقيقية مخصصة للمجانين فكان بيمارستان المجانين في المغرب، وفي مدينة بغداد والقاهرة، وكان العلاج في هذه المستشفيات يقوم على إستخدام الموسيقى والرقص ومشاهدة المسرحيات والإستماع إلى أحسن القصص (بن جعفر، 1989، صفحة 180)

وإنصاف المجنون بالعلاج ومعاملته كإنسان يحتاج إلى شروط الراحة والهدوء لضبط التوتر تقاطعت فيه الحضارة العربية الإسلامية داخل البيمارستان مع بنيوية ميشال فوكو الذي يحفر في تاريخ الجنون، فما حقيقة إنصاف المجنون داخل البيمارستان العربي الإسلامي؟

ثانيا. مفهوم البيمارستان و أنواعه:

1. مفهوم البيمارستان:

تعني كلمة بيمارستان الفارسية وهي مركبة من شقين" أو كلمتين(بيمار) بمعنى مريض أو عليل . أو مصاب، و(ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذن دار المريض ثم إختصرت في الإستعمال فصارت بيمارستان، وكانت البيمارستانات من أول عهد إلى زمن طويل عبارة عن مستشفيات عامة تعالج فيها جميع الأمراض والعلل الباطنية والعقلية، والمجانين الذين لامأوى لهم (احمد، 2018، صفحة 08)

فوجود البيمارستان سواء عالج المجنون أو غيره تعبير عن القيم الإنسانية والإجتماعية التي تمنع الحق للجميع في العلاج المجاني والغذاء والعناية تحت إشراف طبي، والتكاليف على حساب الدولة، وهذا يعكس توفر العدل، وتقدم الطب على حد سواء، وكانت البيمارستانات في الحضارة الإسلامية أنواع وأقسام حسب تخصصاتها وعيناتها التي تهتم برعايتها.

2. أنواع البيمارستانات:

كان تقسيم البيمارستانات حسب الإستقرار فمنها الثابت ومنها المتحول فهي "نوعان مستقرة في مكان، ومتنقلة أما الثابت كان في جهة معينة وهذا النوع من البيمارستانات كان كثير الوجود في كثير من البلدان الإسلامية لاسيما في العواصم الكبرى القاهرة، دمشق، بغداد ومنها البيمارستان المتحول الذي ينتقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وإنتشارها وكذلك الحروب، وهو ماتعبر عنه في الحاضر بكلمة Ambulance (طارق ، مرجع سابق، صفحة 11)" ومن خلال هذا التقسيم فإن العلاج لم يكن حكرًا على المدن الكبرى التي تشهد حضارة بل بالتساوي بين مختلف المناطق التي يمكن أن تصيبها أمراض معدية أو وباء وهذا على القدر الذي يعمم فيه العلاج على قدر الذي يتم عزل مناطق الداء وتخصيص لها بيماريستانات متنقلة تكفيها العلاج وتساهم في الحد من انتشار العدوى.

وداخل البيمارستان طرق إنسانية لعلاج الجنون بالموسيقى والحدائق والقصص التي ترفه عن النفس وتحد من شدة الإضطرابات النفسية عند المجانين فكيف كان يتم علاج الجنون داخل البيمارستان؟

ثالثا. علاج الجنون بالموسيقى داخل البيمارستان

العلاج داخل البيمارستان له طابع اجتماعي يتحسب في التضامن حيث كل الأفراد شركاء في حق العلاج والإيواء وتوفير الرعاية،بإضافة إلى الإهتمام بالمجانين بما يوفر له راحة نفسية لتجاوز القلق والتخفيف من حدة العدوانية، ومن بين أبرز أشكال العلاج النفسي إعتماد الموسيقى لتهدئة الأعصاب" فالعلاج بالموسيقى مفيد حيث الموسيقى تملأ جميع العمليات والجوانب الوظيفية للمخ وتؤثر على قدرات الإنسان بصفة عامة (نجلة، 2006، صفحة 17) "

وبطبيعة الحال المجنون يحتاج إلى التناغم وانسجام نفسي يبتعد من خلاله عن كل مسببات الإضطراب والقلق النفسي وهذا بالاستماع إلى الأنغام التي لها بعد نفسي وفلسفي منذ فيثاغورس اليوناني الذي اعتبر الموسيقى من مصادر الوجود، وكان المعلم الثاني الفارابي في كتاب الموسيقى الكبير يعتبر راحة النفس بالطبيعة والموسيقى التي تهدئ النفس.

وداخل البيمارستان" كان يخصص لكل مريض مرافقان، وعدد الأطباء بكفاية، وكان يتم عزل المرضى الذين يعانون من صعوبة في النوم في غرف خاصة، ويتم جلب لهم القصاص المهرة فيسردون عليهم الحكايات مما يساعدهم على الإستغراق في النوم بهدوء، كما كان يصرف لكل مريض خمس قطع ذهبية وهذا بعد تعافيه وخروجه من المشفى (بن علي، 1989، صفحة 25)".

ومثل هذه القيم الإنسانية في معالجة المجنون بإمكانها منح فرصة للمجنون لاستعادة عقله وتجاوز الإضطراب وهذا بمؤانسته والترفيه عنه حتى يعود إلى ذاته، وليس بالعزل والتهميش والإقصاء الذي يعقد العلاج ويجعله من المستحيل، لذلك معاملة المجنون بالطريقة العلمية والاحتواء الإجتماعي مع ضمان شروط الراحة النفسية يسهل في عمل الطب النفسي داخل البيمارستان الذي" تطور لاحقًا في عهد الدولة السلجوقية ومن بعدها الدولة العثمانية حيث تم بناء العديد من التجمعات العلاجية حول المساجد وكانت تسمى بـ (التكايا) والتي كانت أصلا مؤسسات دينية صوفية وقد اشتهرت التكايا لعدة قرون وهي تماثل لحد كبير المراكز الصحية العقلية (بن علي، تاريخ الطب النفسي، مرجع سابق، صفحة 26)".

واشتهرت البيمارستان في أكبر العواصم زمان الحضارة الإسلامية من أجل تنظيم لشؤن الإجتماعية والرعاية الصحية للفقراء وحتى الأغنياء إذ لم يجدوا العلاج يلتحقوا بالبيمارستان وكان بيمارستان السوري الكبير في دمشق فيه شق مخصص للمجانين ويتم فيه العلاج بالموسيقى والحدائق المريحة وعمل" السلطان نور الدين بن محمود في دمشق سنة 545هجرية ـ 1154ميلادية حيث أنشأ بدمشق بيمارستان وهو أحسن مابني من البيمارستانات بالبلاد وهو للفقراء والمساكين وفيه بالإضافة إلى المرضى، نجد المجانين قصد علاجهم (عيسى، مرجع سابق، صفحة 131)".

وهذا مايعكس التقدم الطبي داخل الحضارة الإسلامية، وتوفر قيم التواصل والاعتراف والعيش المشترك إذ يكون الحق فيه للعلاج لكل طبقات المجتمع، ولكل إنسان سواء عاقلًا وحكيم أم مجنون يعيش اضطرابات وقلق، ويعتبر الموسيقى من أبرز طرق العلاج وتحدث فيها أبو النصر الفارابي نظرًا لأهميتها في الراحة النفسية في مؤلفه الموسيقى الكبير فكيف عالج الفارابي القلق بالموسيقى؟

رابعًا. علاج القلق والإنفعال بالموسيقى عند الفارابي:

جعل الفارابي صناعة الموسيقى تهذب النفس وتساهم في تسهيل عمل الأعصاب والإدراك" فالموسيقى صناعة في تأليف النغم والأصوات ومناسباتها وإيقاعاتها ويدخل منها الحسن الموزون بالكمية والكيفية والأصل فيها غريزة في الإنسان خلقتها له الضرورة والرغبة الباطنية فيه بإخراج الأصوات على أنحاء مختلفة عند الإنفعالات الحادثة في النفس فتأخذ بها عند طلب الراحة وتسكن بها الإنفعالات (الفارابي ، صفحة 15)

فأهمية الموسيقى هي تهذيب النفس والسيطرة على القلق والإنفعالات عند الإنسان لأن الموسيقى مصدر لذة وسكينة للنفس عند الإنفعالات ويعود إليها الإنسان من أجل التوازن العقلي والنفسي "إذ لحقه أسف أو رغبة أو غضب أو غير ذلك من الإنفعالات، والأصوات والنغم إذ إستعملت بما حصل عنها انفعال ما وربما زال الانفعال أو إنتقص والسبب في الألحان التي تقيد اللذة هو السبب في سائر المحسوسات والمدركات (الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير، ، صفحة 64)

وبذلك تنظيم عملية الإدراك وخلق التوازن في النفس أثناء القلق أو الإنفعالات يكون بهدوء الموسيقى التي تهذب السلوك، وقد استخدمت الأنغام والموسيقى في علاج الجنون داخل البيمارستان بدل تهميش المجنون، لأن الجنون يحتاج صاحبه إلى الترفيه عن النفس قصد تجاوز الأزمات، مثلما كانت الحدائق صورة جمالية لعلاج القلق والجنون.

واستخدم الفارابي الموسيقى لراحة نفسية حيث "كان الفارابي يستأنس بالموسيقى كما كان هو نفسه عازفًا وترك في هذا الحقل كتاب الموسيقى الكبير بعد أهم ماكتب عن النظريات الموسيقية في العصر الوسيط (كوربان، 1998، صفحة 243) .

لأنه مؤلف حول الموسيقى يركز عن دور جديد للموسيقى وهو العلاج النفسي للاعتزال لأنها حكمة وتفتح المجال للتأمل ولسعة القلب والعقل،وهذا يجعل للموسيقى بعد أخلاقي وعلاجي نفسي، وهذا غرض صناعة الألحان عند الفارابي" لأنه في تأليف الألحان الكاملة وهي موضوعة في الأقاويل الشعرية المؤلفة على ترتيب وانتظام،

وكيفية صياغتها بحسب غرض من أغراض الألحان تعرف الأحوال التي يصير بها أنقذ وأبلغ في بلوغ الغرض الذي هو عمل (الفارابي، إحصاء العلوم، صفحة 63)

ومن أبرز أغراض الموسيقى التناغم الذي ينعكس على الذات قصد انسجام النفس وزوال التوتر والإنفعالات التي تقيد اللذة والراحة عند الأفراد، وهذه صناعة في الموسيقى استخدمت بالإضافة إلى الحدائق الطبيعة المريحة لعلاج الجنون في الحضارة الإسلامية بإنصاف ومراعات القيم الإنسانية على غرار حال المجنون في القرون الوسطى الأوربية.

خامسًا. إنصاف المجنون داخل البيمارستان:

العيش المشترك داخل الحضارة العربية الإسلامية تجسد من خلال الجانب الطبي الذي حظوظ الفقراء والأغنياء في العلاج متساوية مثلما حضوض العقلاء والمجانين متساوية في توفير الدواء والغذاء وأسباب الراحة النفسية والعقلية داخل البيمارستانات الإسلامية في دمشق والقاهرة، وبغداد، وخصص جزء خاص من البيمارستان في علاج الجنون الذين كانوا في أوربا الوسطية من الحمقى مصيرهم العزل والسجن والنفي.

حيث كان" موقف العرب أكثر إنسانية نحو المرضى العقليين مما أحدث شيئًا من التأثير على نظرة دول أوربا الغربية اتجاه المرضى العقليين فقد أسست العديد من المستشفيات العقلية في بغداد في القرن الثامن ميلادي والقاهرة، ووفرت لهم المستشفيات العقلية وفرت الإسترخاء والعلاج بالحدائق والغناء (بن علي، تاريخ الطب النفسي في بلاد المسلمين، مرجع سابق، صفحة 21)

وتوفير العلاج النفسي للمختلين عقليًا يدخل ضمن ثقافة العيش المشترك دون إقصاء من يعيشون إضطرابات نفسية، بل تؤسس لهم مأوى وتتكفل إدارة البيمارستان بمصاريف العلاج والمتابعة ولا تعتبرهم أقلية تشوه المدينة، بل مرضى حاجتهم للرعاية أمر ضروري.

وتمت إقامة أماكن خاصة بالمجانين "هي مشافي البلهاء والمجانين منذ القرن الأول هجري فهؤلاء كانوا يعتبرون عاجزين عن القيام بحاجاتهم، وأنه من واجب الدولة أن تقوم بخدمتهم فكان لهم محل خاص بمعالجتهم في المستشفيات العامة حيث أفردت

لهم غرف خاصة وفي هذا الوقت كان المجانين في أوربا يقيدون بسلاسل الحديد والعلاج الوحيد لهم كان الضرب عندما ترتفع أصواتهم بالصراخ (سعد، 1946، صفحة 69)
وهذا حجة تجاوز القيم الإنسانية، وعدم إنصاف المجنون في أوربا الوسطية بل يتم سجنهم لامتصاص الأزمات الإقتصادية ومعاملتهم بطريقة وحشية ، دون إسعافهم؛ أما داخل البيمارستانات تسعى إدارته على توفير كل شروط الراحة النفسية للمجنون والترفيه عنه بالحدائق والقصص والموسيقى، إضافة إلى تلبية مختلف حاجياتهم فكانت" البيمارستانات وقف على الفقراء والأغنياء على حد سواء لأن بعض الأدوية لاتوجد إلا فيها لذلك يأخذونها إن احتاجوا إليها ولم يجدوها في مكان آخر (المنجد، 1946، صفحة 14).

وقيمة الإنصاف في العلاج تساهم في تكريس الأخلاقيات والعيش مع ومن أجل الآخرين حياة طبيعية صحية تجعلهم يتجاوزون كل أشكال الأوبئة التي تخلط الموازين الإجتماعية " كان المرضى يترددون على البيمارستان بكثرة وكانت نفاقاته تبلغ مبالغ كبيرة وكانت أسماء المرضى تدون في الصحف والسجلات، وفيها تكتب النفاقات التي يحتاجون إليها من أدوية وأغذية فتقدم إليهم فلايخرجون منه حتى يشفون ويحققون لهم مايطلبون (المنجد، مرجع سابق، صفحة 15)

فتنوعت أشكال العناية والرعاية داخل البيمارستان سواء بالطب أو الموسيقى أو الاهتمام بتكاليف العلاج، وهي قيم إنسانية، وأخلاقية أنصفت الفقراء والمجانين في الحضارة العربية الإسلامية؛ بينما رفضتهم أوربا في القرون الوسطى وتحدث ميشال فوكو في مؤلفه تاريخ الجنون عن حقيقة المجنون المسكوت عنها والعزل وسفينة الحمقى إلى غاية ظهور المستشفيات العقلية والنفسية، والواقع كان مجاوز لحقوق الإنسان وهذا ما نوضحه فيما يلي من خلال إنصاف المجنون عند ميشال فوكو الذي تحدث عن المعاملة الإنسانية للمجنون في البلاد العربية الإسلامية وكيف كانت تتم معالجة الجنون والإضطرابات النفسية وحالات القلق بالحدائق الطبيعية التي فيها من الجماليات مايجعل الإنسان ينسى القلق والمجنون يكتسب نوعًا من الراحة.

بالإضافة إلى استخدام الموسيقى في الطب التي من شأنها تهذب السلوك وتروح عن النفس وتسمح للأعصاب بالإسترخاء فكيف عالج ميشال فوكو الجنون المسكوت عنه في العصر الكلاسيكي؟

سادسًا. حقيقة الجنون من البيمارستان إلى العزل عند فوكو

حقبة جديدة في تاريخ الجنون تم تجاوز فيها كل القيم الإنسانية عرفتها الحضارة الأوربية هي تهميش المجنون بعدما كان له الحق في العلاج النفسي والتكفل المادي داخل البيمارستان الإسلامي، حيث كشف ميشال فوكو الذي أرخ للجنون عن المعاملة الغير إنسانية التي عاشها المجنون في أوربا، وهذا من خلال عودته إلى اللامنطوق داخل الأرشيف "حيث كان يتم إعتقال المجنون المختل عقليًا مع المنحرف، والمهرطق في مؤسسات الحجز (كتييل، 2015، صفحة 105)

والهدف من عزل المجنون وسجنه هو امتصاص البؤساء لتجاوز الأزمة الإقتصادية دون مراعات الأخلاق وحقوق الإنسان، وكان المريض العقلي مهمش مثل ماهو حال الأمراض المعدية والأوبئة كما يوضح هذا ميشال فوكو في مؤلفه تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي حيث يوضح أن " ظاهرة الجنون ظلت في حالة كمون مدة قرنين تقريبًا وستشكل حالة رعب مثل الجذام، وبهذا تكون حالات العزل والإقصاء والتطهير قبل أن تتم السيطرة على الجنون في أواخر القرن السابع عشر (فوكو، 2006، صفحة 28).

واللحظة الديكارتية التي تربط العقل بالوجود تجعل الغير عاقل المجنون مهمش إجتماعيًا في القرون الوسطى الأوربية كان يعتقد أن المجنون تسكنه أرواح شريرة ويتم تقب رأسه لتخرج منه الشياطين.

ثم أصبح الجنون يصنف ضمن دائرة الأمراض والأبئة التي تهدد الحياة الإنسانية مثل الأمراض التناسلية ومرض الجذام المعدي مما يخلق رعب وسط العامة ويسهل على السلطة عزل المجنون والمختل عقليًا بل امتد الأمر إلى عزل كل معارض وكل مشرد بحجة الجنون ووضعهم داخل السجن مقيدين مثل البهائم وهذا فيه تجاوزات في حق الإنسانية، وفي عصر النهضة كان يرمى بالمجانين في سفينة تسمى بسفينة الحمقى التي تنقلهم من مدينة إلى أخرى وهذا لإبعادهم من العالم باعتبارهم سبب التعاسة

والبؤس في العزل والطرد إلى البحار أبعاد سياسية واقتصادية خفية الهدف منها امتصاص البؤس، فكيف كان حال المجانين داخل سفينة الحمقى؟

سابعًا. سفينة الحمقى وتهميش المجنون

على قدر الصور الجمالية في رواية سفينة الحمقى وغيرها من المؤلفات الأدبية الفنية في عصر النهضة على قدر ماتعكس وتحاكي حقيقة الواقع الأوربي الذي يقصي البؤساء والمجانين وكل الطبقات الإجتماعية الضعيفة التي ترهق الدولة في نفقاتها، فلا بديل لامتصاص هذه المظاهر سوى الحجز والعزل والسجون والنفي، ورواية سفينة الحمقى التي تحدث عنها ميشال فوكو في تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، حيث يتم احتجاز المجانين داخل السفينة التي تأخذهم من مدينة إلى أخرى " فسفينة الحمقى هي من بين الأساطير الروائية والهجائية وهي التي كان لها وجود حقيقي فالسفن التي كانت تحمل حمولتها الجنونية من مدينة إلى أخرى وجدت حقًا، وبهذا فإن الحمقى كانوا يعيشون حياة التيه لقد كانت المدن تطردهم ليلحقوا بالبراري حيث يتهون أو يسيحون في قافلة تجار وبضائع (فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المرجع السابق، صفحة 29)

وهذا التهميش الذي يلحق بالمجنون هو حتمية للأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي تبحث عن التوازن على حساب إقصاء كل عضو غير فعال داخل المجتمع. حيث كان المجنون يعتبر وحش وحالة شاذة داخل المجتمع على غرار الحضارة الإسلامية أين يتم التكفل النفسي بالمجنون داخل البيمارستان وعلاجه بالموسيقى، وتوفير الحدائق الطبيعية الجميلة التي تبعث راحة في نفسية المجنون بما يساعده على تجاوز القلق والتوتر والإنفعالات "وفي العصور الوسطى الأوربية وعصر النهضة لم يكن الجنون مدركًا إلا أنه كان معترف به على صرح الواقع الإجتماعي، إذ كانت سفينة المجانين في العصور الوسطى بمثابة فكرة مثالية تحمل الخطر في صورته العامة وتذهب بخطر المجانين إلى عرض البحر (بن جعفر ع.، 1989، صفحة 180).

فوجود حقبة الجنون في العصور الوسطى الأوربية حقيقته كانت من خلال الأعمال الفنية الأدبية التي ساهمت في تطور الفكر التحرري في عصر النهضة، لأن الأعمال الفنية الأدبية عبرت عن الواقع المعاش المسكوت عنه في رسائل فنية تجمع بين النقد

والجماليات في القصص ومن بينها سفينة الحمقى، ورواية ديدرو إبن أختي رامو ورواية رازموس في مديح الحماقة.

أما الشق الثاني الذي يعترف بحقيقة الجنون وواقعه داخل أوربا هو الأرشيف الذي حفر فيه ميشال فوكو وكشف عن الممارسات الغير إنسانية في تاريخ الغرب الأوربي " فبتكر ميشال فوكو منهج جديد أسماه المنهج الأركيولوجي أو الحفري وهو كما نستنتج من تسميته يستمد من الأركيولوجيا طريقتها في الحفر والتنقيب كما بقي مطموسًا من آثار قديمة، لكن فوكو لايستخدم المعاول وآلات القياس بل يستخدم الكلمة ليكشف عن طريقها على أسرار الأرشيف الذي تآكلت كتبه وطمست حقائقه، إن الأرشيف مجال موضوعي في الوقت ذاته يمكننا ويساعدنا بأن نصل إلى حقيقة البنية المتضمنة فيه بأقل الانحرافات المنهجية".

ومن بين هذه الانحرافات الخطيرة في تاريخ الغرب الأوربي هي إنكار المجنون وتشريده وطمس هويته بالحجز والتقييد حتى داخل أسوار السجن ، واستمرت هذه العداوة ضد المجنون إلى درجة اعتبار الجنون من الأوبئة يوازي مرض الجذام والأمراض التناسلية مما يجعل الجنون شبح إجتماعي وجب التخلص منه كما كتب فوكو عن البنية الحقيقية التي عاشها المجنون "في تاريخ الجنون إنا مانكون في القرنين السابع عشر والثامن عشر تحت تأثير مفعور الصور هو إذن بنية إدراكية حسية وليس نسقًا موضوعيًا أما في نهاية القرن الثامن عشر فقد راحت المعرفة تتجلى في مظهر جديد فهي ماعادت متمركزة على مستوى التصور والمنظور بل على مستوى وبعد جديد للواقع بعد بنية المستقرة والخفية (روجيه، 1989، صفحة 38)

والبنية المتسترة فيها تكمن حقيقة الجنون دون إنصافه والذي عاش كل أنواع البؤس من ظهر الطب النفسي والمصحات النفسية والمستشفيات التي تعالج الجنون بأوربا، وعدا ذلك من صور وجود المجنون كإنسان تداولت في الأعمال الفنية الأدبية التي تنصف المجنون في روايات تعارض التعسف في حقه وحق الإنسانية، وهذا ما كتبه ارازم في مديح الجنون الذي ينصف فيه الحماقة التي نوضح حقيقتها من ناحية القيم الإنسانية والبحث عن إنصاف الجنون فيمايلي:

سابعًا. حكمة الحمقى و إنصاف المجنون عند إراسموس:

الإعتراف بالمجنون وإن لم يتجسد فعليًا في تاريخ الغرب فإن وجوده فنيًا أدبيًا ساهم فيه فلاسفة النهضة الأوربية في حركتهم النقدية التي أنصفت المجنون والبؤساء وكل مقهور من تبعية القرون الوسطى فأبدع سرفيتنس من خلال دون كشيوته الذي تصرف بحمقه، والحمق حاضر في شخصية رامو فكتب ديدرو رواية إبن أخي رامو الذي يمثل الغفلة والبلاهة والجنون في سلوكه والغرض من الرواية هجاء نقدي في صورة غير مباشرة، تكون فيها الحكمة من أفواه المجانين.

وسفينة الحمقى توضيح لحقيقة التعامل مع الجنون بصورة الإقصاء والتهميش وأبدع ارازموس في رواية مديح الجنون حيث وفرت الإعتراف المعنوي لإنصاف المجنون كإنسان لابد أن نسمعه ونحترمه ونوفر له الراحة بدل التهميش " فيتحدث الناس عن الحمق بالسؤ حتى من هم أكثر الناس حماقة لكن تقول الحماقة أنا هي من تؤذي كل الناس حتى الآلهة وإني أحاول أن أجادل مجادلة جادة لازلت أنبذ كلامي لكن وجوهكم تثبت عدم الرعية في حديثي (إراسموس، 2011، صفحة 09)

فحديث الحماقة حكمة عند إراسموس كونها تصف الحقيقة كما هي وليس كما يدعوا النظام الذي يقصي المجنون في أوربا ويقصي المعارض ويتهمه بالجنون ويتم زجهم بالسجن أو الحكم عليه بالتيه وسط البحار من جزيرة إلى أخرى داخل سفينة الحمقى، فالحفر الأركيولوجي كشف من خلاله ميشال فوكو عن كل خفي متستر عن الحقيقة الإنسانية التي تجاوزت حدود الكرامة الإنسانية.

وإنصاف الحماقة عمل فني أدبي من شأنه أن يوفر أخلاقيات الإعتراف بالمجنون من خلال رواية مديح الحمقى لإرازموس فتقول الحماقة عن نفسها " لن أدع أحد يسألني من أنا ولن أعرف نفسي فأنا التي تبيح كل الأفعال والأقوال فاليونان يسموني وبالإنجليزية فإن لم يكن مظهري يصور جوهري فلن أعرف نفسي أكثر من هذا فلن يخطئ أحد ويدعوني بالحكمة فأنا أفتخر بنفسي ولا أبالي فيما يقول الناس (إراسموس، في مديح الحماقة، المرجع نفسه ، صفحة 10)

فقول الناس حكم على المجنون بالمظهر مما يولد السطو و النفور منه أو تحويله إلى تسلية والسخرية قصد الترفيه عن النفس بدل علاجه والعمل على راحته

النفسية، لأنه في النهاية المجنون هو إنسان وإن غاب عنه عقله، بدلا أن لا تغيب عنه باقي العقول وتهمشه وتنفره منه وهذا يتنافى مع أخلاقيات الضيافة.

فهذه ليست مقارنة من إراسموس في مديح الحماقة بل من خلال هذا المدح يكون هجاء ونقد للعقلاء الذين أنكروا المجنون وعاملوه بعيدًا عن القيم الإنسانية، والنظام السياسي إحتجز المجنون في السجن مع المجرم دون جريمة بحجة إختلال العقل والتوتر النفسي الذي يتطلب رعاية توازي ماكان موجود داخل البيمارستان في الحضارة والعربية الإسلامية.

فيذكر إراسموس واصفا العقل من خلال مدح الحماقة :" أنا الحماقة والوقاحة وهذا أفضل إسم لي قد سماني به الله لأني أخدع الناس ولكن سأحاول أن أبذل قصارى جهدي لأغير المعنى الراسخ في أذهان الناس عني (إراسموس، في مديح الحماقة، مرجع نفسه، صفحة 10)"

فأذهان الناس ارتبطت بنظرة النظام الذي ينبذ المجنون ويتم عزله أو نفيه، ومعاملته بالقوة والتعسف في حقه لذلك لابد من تكامل منظومة قانونية وأخلاقية وسياسية من أجل إنصاف المجنون، وإن كانت صورة الجنون في مؤلف ميشال فوكو تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي تعبر عن وضع إنساني فإنها أنصفت معاملة المسلمين العرب للمجنون من خلال البيمارستان والعلاج بالموسيقى والفن لتجاوز حالات القلق والإنفعالات عند المرضى، وتوفر لهم مجالات الفسحة في الحدائق الطبيعية المريحة، كما تتكفل إدارة البيمارستان بنفقات العلاج، وهذا يجعل الإنصاف ليس فقط مرتبط بالتوزيع في الحصص، بل إنصاف في القيم الإنسانية من أجل حفظ كرامة الإنسان في ذاته وإن غاب عقله فنحن أمام إلتزام أخلاقي وإنساني.

خاتمة:

نأخذ من حكمة المجانين بقدر مانعطيهم من شروط الإنسانية والإحترام والرعاية لأن المجنون غير ملزم بمسؤولية بل الإلتزام هو للآخر الذي لابد أن ينصف المجنون، وكل ماكتب عن تاريخ الجنون قبل ميلاد العيادة النفسية لايستطيع إنكارمعاناة المجانين في القرون الوسطى الأوربية، وحتى زمن الصرامة والعقلانية الديكارتية، التي تبعد الغير عاقل عن نطاق الله والوجود، فلا يصل المجنون إلى شيء سوى الحماقة.

وإنصاف المجنون كان في عصره الذهبي داخل البيمارستان الإسلامي في كل العواصم الإسلامية الكبرى بغداد، سوريا، القاهرة، وفيه كانت حقيقة الأخلاقيات التي تنصف المجنون وتوفر له شروط التكيف مع ذاته ومع غيره من الأفراد بالعلاج بالموسيقى والفن القصصي والحدائق التي ترتاح لها النفس، وهذا ما أشار إليه فوكو في تاريخ الجنون حيث بحث عن المسكوت عنه، والخفي المؤلم من المأساة التي عاشها المجنون في العصر الكلاسيكي.

ولم يكن للمجنون من الوجود سوى الوجود الفني الأدبي الذي يراعي أخلاقيات المجنون كإنسان مع ارازموس الذي كتب في مديح الحماقة، وديدرو الذي كتب إبن أخي رامو، وسرڤنس في دونكستوت ورواية سفينة الحمقى.

على قدر ما يجمع الرويات من طابع التسلية فإنه يكشف حقيقة إنصاف المجنون الذي فقد اللوغوس، ومن حكمة اللوغوس إحترام المجنون وإنصافه كإنسان وفق القيم الأخلاقية والإنسانية.

Bibliographie

.(1989) .الاسكندرية :دار المعارف .

احمد ,ع .(2018) .*تاريخ البيمارستانات في الاسلام* .المملكة المتحدة :مؤسسة هنداوي.

إراسموس .(2011) .*في مديح الحماقة* .éd)ط) .(1أ .سعيد (.Trad ,القاهرة :وكالة سفكس.

الفارابي .(s.d.) .*إحصاء العلوم* .éd)ط .(1بيروت ـ لبنان :دار الهلال.

الفارابي، تحقيق :عباس عبد الملك خشبة، مراجعة :محمود أحمد .(s.d.) .*كتاب الموسيقى الكبير* .القاهرة :دار الكتاب العربي للطباعة.

المنجد ,ص .(1946) .*بيمارستان نور الدين* .دمشق :المكتبة العربية.

بن جعفر ,ع .(1989) .*البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشال فوكو* .الإسكندرية :دار المعارف.

بن علي ,ط .ا .(1989) .*تاريخ الطب النفسي في بلاد المسلمين* .éd)ط .(1الرياض :دار المسلم للنشر والتوزيع.

جعفر .(1982) .*بيمار* .الاسكندرية.

روجيه ,غ .(1989) .*البنيوية فلسفة موت الإنسان* .(éd.)ط) .(1ج .طرابيشي (.Trad ,بيروت ـ لبنان :دار الطليعة.

سعد ,أ .خ .(1946) .*الطب العربي* .بيروت ـ لبنان :مطبعة الأمير كاتيه.

عبد الوهاب بن جعفر. (1989). *البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشال فوكو*. الإسكندرية: دار المعارف.

فوكو ,م .(2006) .*تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي* .(éd.)ط .(1سعيد فيكراء المركز الثقافي العربي.

كتييل ,ك .(2015) .*تاريخ الجنون*) .و .سمير فكر (.Trad ,المملكة المتحدة :مؤسسة الهنداوي.

كوربان ,هـ .(1998) .*تاريخ الفلسفة الإسلامية* .(éd.)ط) .(2و .نصيرة مروة (.Trad ,بيروت، باريس :عويدات للنشر والطباعة.

نجلة ,ع .ا .(2006) .*العلاج النفسي بالموسيقى* .(éd.)ط .(1القاهرة :عالم الكتب للنشر.